د. محمد يوسف عدس
مستشار بمنظمة اليونسكو

قصة حزن وندم

السادس والعشرون من شهر يناير سنة ٢٠٠٧م يوم مشهود في حياتي الشخصية، محفور في أعماق القلب والعقل.. ذلك اليوم الذي فقدت فيه زوجتي إلى الأبد، وتحولت فيه حياتي بفراقها إلى مأساة أصبحت مع الوقت هادئة.. ولكن لها مذاق مرّ أتجرعه في كل يوم.. ولا أجد في هذه الدنيا بطولها وعرضها شيئًا يعوضني عنها..

كان يوم جمعة.. وكنت في المستشفي بلندن، خارجًا توًّا من العناية المركزة على إثر إصابة مفاجئة بالتهاب رئوي حاد، وكانت زوجتي معي بنفس المستشفي تعالج من نفس الحالة التي أصبنا بها معًا.. وقد علمت أنها كانت بالعناية المركزة أيضًا.. توقعت أن أرى ابننا في ذلك الصباح لأسمع خبرًا مُطَمْئِنًا عن حالة والدته ولكنه لم يحضر وجاء بدلاً منه زميل له؛ أستاذ عراقي من هيئة التدريس في نفس الجامعة التي يدرِّس فيها ابني.. جلس أمامي صامتًا شارد الذهن، فقلت له ماذا بك..؟ فقال بنبرة حزينة: آسف جدًا أن أبلغك هذا الخبر.. لقد توفيت زوجتك أمس.. ونحن الآن نحاول إتمام إجراءات نقلها للصلاة عليها في المسجد الكبير.. فاليوم يوم جمعة، حيث يمتلئ المسجد بالمصلين الذين لا يقل عددهم في العادة عن خمسة آلاف..

كنت أستمع إليه، وأنا أشعر كأن طعنة بسكين حادة قد استقرت في القلب.. أصابتني بحالة من الذهول وعدم التصديق.. حالة من الشلل العقلي والبدني على السواء: كنت أتوقع كلمة تصدر مني فلم أجد، لا كلمة ولا صرخة ولا دمعة.. وإنما ألم صامت يربض على القلب بثقل الجبل.. ألمٌ يلفّ كياني كله.. عجزت معه حتى عن التنفس..

بعد لحظات من الصمت كأنها دهر.. قلت له: هل يمكنني أن أراها الآن..؟ قال: بالتأكيد..؟ قلت له: من فضلك استدعِ لي الطبيب المسؤول فورًا.. جاء الطبيب فسألته..؟ هل علمت ما حدث لزوجتي..؟ فأجاب بما لم أكن أتوقعه.. قال: كل المستشفي تعلم وتتحدث عن حالتكما أنت وزوجك.. قلت له: أريد أن أخرج من المستشفي لأصلى عليها وأودّعها.. فقال مندهشًا: يستحيل أن تخرج بحالتك الراهنة وإلا تعرضت حياتك لخطر مؤكد.. قلت له: سأخرج مهما كانت الظروف.. وأتحمل المسؤولية..؟ قال: مادمت مصرًّا فسأسمح لك بالخروج على مسؤوليتك.. بشرط أن تعود إلى المستشفي فور الانتهاء من الجنازة.. قلت له: موافق..

بعد أن زوّدني الطبيب بجرعات مضاعفة من الأدوية والسوائل حرّرني من الأنابيب والإبر المغروسة في عروقي.. ولفّها بأربطة.. وخرجت مستندًا على أذرع من يرافقني إلى حيث ترقد زوجتي فكشفت عن وجهها لأرى شيئًا مذهلاً.. كأنها عروس يوم زفافها لا أثر للموت على وجهها المنبسطة أساريره.. وعلى شفتيها ابتسامة هادئة تودع الدنيا التي ملأتها بإيمانها وأعمالها

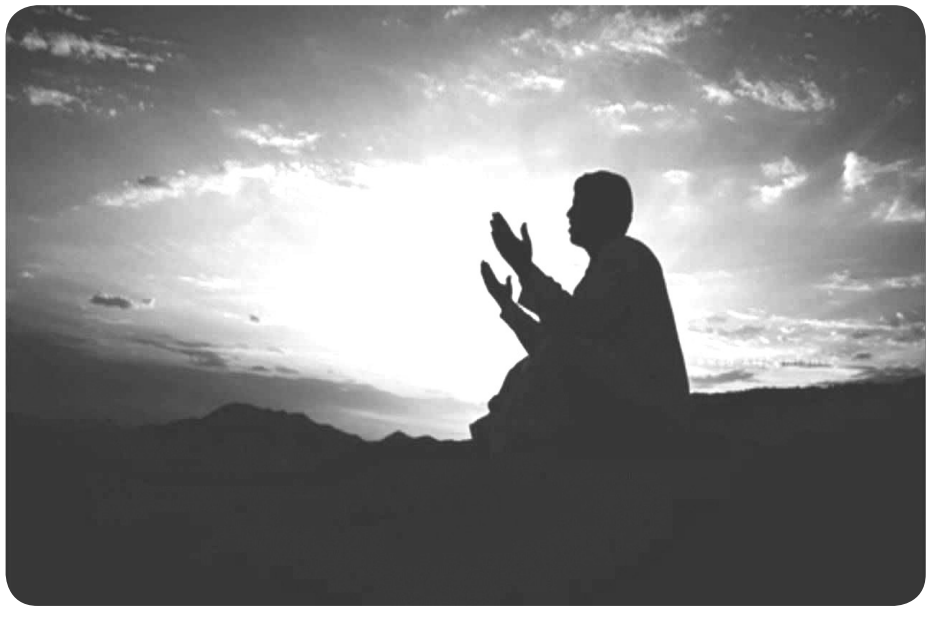

الصالحة.. ودّعتُها بقبلة على الجبين ودعوت الله لها بالمغفرة وحسن القبول.. فلما ذهبت إلى المسجد وجدته مكتظًا بالمصلين.. حتى إنني اضطررت للوقوف في آخر صف لصلاة الجمعة.. فلما انقضت الصلاة أعلن الإمام عن صلاة الجنازة لسيدة فاضلة.. تحدث عن موتها بكلمات كأنها سمّرت المصلين في أماكنهم فلم يخرج أحد.. وهكذا صلى عليها خمسة آلاف إنسان، رجالاً ونساءً، غرباء من كل أنحاء الدنيا - في ذلك اليوم المبارك ودعوا الله لها.. وجاءني عشرات من الناس لا أعرفهم ولا رأيت أحدًا منهم قبل ذلك قط.. لمواساتي وتعزيتي.. ثم سرت مع الجنازة حتى أودعناها في مستقرها الأخير في مقابر المسلمين بلندن.

كانت (رحمها الله) - رغم حالتنا الميسورة - تدقق في النفقة على نفسها وهي قادرة على تحصيل الرفاهية.. ولكنها لم تتطلّع لأبعد من توفير الضرورات اللازمة للحياة.. وكنت ألاحظ هذا، وأدعوها للتوسعة على نفسها أكثر مما تفعل.. فلم توافق ولم تعارض ولكنها استمعت وصمتت.. أما كرمها وصدقاتها فكانت بلا حدود.. علمت أطرافًا منها في حياتها.. ولكن ما عرفته بعد وفاتها كان شيئًا مذهلاً.. يحتاج حصره إلى كتاب.

سأل ابني يومًا وأنا أحكي له عنها: لِمَ لا تكتب هذا الكتاب يا أبي قبل أن تنسى.. فقلت: وهل ينسى الإنسان نفسه يابني..؟! لقد كانت هي نفسي التي بين جوانحي..

لم أشأ أن أطلعه على النصف الثاني من الحقيقة، وهو أن محاولة الكتابة في هذا الموضوع يحيي ذكريات وينكأ حول الفراق الفاجع جراحًا، ويثير أحزانًا لا قبل لي بتحمُّلها.. وأكثر من هذا: الشعور بالندم القاهر الذي ينتابني.. لأنني عجزت عن إدراك الحقيقة كاملة عن ذلك الكنز الإنساني الذي عايشته ولم أحط بفهمه، ولا استوعبت قيمته الحقيقة فهمًا واستيعابًا كاملين إلا بعد أن فقدته.. ولو حدث هذا في حينه لكان ليس شأن آخر في تقديره ومعاملته بما يستحقه.. وهو أهل له..

أذكر الآن أنها حاولت مرات أن تلفت نظري إلى ذلك برفق وهي تقول: إن انشغالك الزائد بعملك وبالكتابة يحرمك ويحرمنا من طيبات كثيرة.. كانت تخجل وتتحاشى أن تشعرني بأنها عبء عليّ.. وكنت من ناحيتي أتمنى في قرارة نفسي أن تنتزعني انتزاعًا مما استغرقت فيه بين العمل والكتابة، لكي نتحدث معًا في أمور أخرى مشتركة تهمنا..

وبدلاً من هذا: استغرقتْ هي في خجلها واستغرقتُ أنا في أمنيتي على أمل أن يأتي وقت نلتقي فيه.. لنتحدث ويفضُّ كل واحد منا ما في أعماقه من هموم.. ومشاعر مكنونة تجاه الآخر.. ولكن هذا الوقت ظل معلقًا بين الخجل والأمل حتى اخترمه الموت فجأة فقضى عليه..

إنها قصة حياة.. كما أنها قصة حزن وندم حقيقين لمن أراد أن يتعظ بتجربة الآخرين.. فلا يكرر أخطاءهم.. أما بالنسبة لي: فالراحل لا يعود ولات حين مندم..! تعتصرني مشاعر الفراق والندم.. وأدعو الله لها بالرحمة، وأستغفره في اليوم والليلة مئة مرة لعل الله أن يتقبل الدعاء ويتفضل بالمغفرة والرحمة؛ إنه نعم المولى ونعم النصير.. وهو أرحم الراحمين.■